الوحدة الإنسانيّة والإسلاميّة في القرآن الكريم والسنّة الشريفة -دراسة تأصيليّة-

الشيخ محمود سرائب[1]

خلاصة المقالة:

تتناول هذه المقالة قضيّة الوحدة الإنسانيّة والإسلاميّة من منظار القرآن الكريم والسنّة الشريفة؛مبيّنةً أنّ مبدأ الوحدة في الرؤية القرآنيّة ليس مجرّد فكرة نظريّة أو فلسفيّة مثاليّة؛ وإنّما هو متجذّر اجتماعيًّا في وحدة الجنس البشريّ، وروحيًّا في وحدة الدِّين ورسالته؛ من حيث مصدرها وغايتها معًا. ومقتضى الرؤية الوحدويّة القرآنيّة هي أصالة السلم والسلام في نشر الدعوة الإسلاميّة في جميع أقطار الدنيا. وأيّ تفرقة تُصيب المجتمعات الإنسانيّة، وبالأخصّ المجتمعات الإسلاميّة، هي خروج عن أصالة السلام والرحمة اللذين هما أساس بنية الدعوة الإسلاميّة.

إنّ الوحدة ليست تنظيرًا سياسيًّا أو عملًا مجامليًّا أو آنيًّا ينطلق من انفعالات محدّدة، بل هي من صميم رؤية الإسلام بجميع تشريعاته ونظمه، وهي جزء أصيل من مشروع الإسلام وحاكميّته في الأرض؛ حيث إنّه دين التوحيد والوحدة.

وعليه، فإنّ الوحدة الإسلاميّة مشروعنا الثقافيّ، والسياسيّ، والاقتصاديّ، الحاضر والمستقبليّ.وهذا المشروع الإسلامي العالميّ هو المشروع المؤهّل لمواجهة التحدّيات الحضاريّة، والسياسيّة والاقتصاديّة الكبيرة التي يواجهها العالم الإسلاميّ اليوم.

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ، من لبنان.

ولذا، لا بدّ من العمل على إرساء عناصر الوحدة الإسلاميّة على مستوى العقيدة، والعمل، والاتّباع، والقيادة، والهدف، والخصال ومكارم الأخلاق، والثقافة، وتأصيلها في المجتمع الإسلاميّ؛ بجعلها أساسًا ومعيارًا علميًّا وعمليًّا للتعامل مع مواضع الاختلاف العلميّ، والفكريّ، والسياسيّ، والاقتصاديّ... بين المسلمين. والقيام بتنظيم فقهيّ لأمر التعايش الفقهيّ بينهم، وتطبيق أخلاق الوحدة في المجتمع الإسلاميّ؛ من قبيل: «الألفة»، و«الرفق»، و«المداراة»، و«العفو»، و«المسامحة»، و«اتّباع الحقّ»، و«التجرّد من العصبيّة»، ووضع آليّات علميّة وعمليّة لإرساء قيم الوحدة وصيانتها وتعزيز أواصرها وتقويتها.

كلمات مفتاحيّة:

الإسلام، القرآن الكريم، السنّة الشريفة، الإنسان، المجتمع، الوحدة الإنسانيّة، الوحدة الإسلاميّة، المساواة، الأخوّة، التعايش، السلام.

مقدّمة:

إنّ الإسلام هو أوّل من قرّر المبادئ الخاصّة بحقوق الإنسان في أكمل صورة وأوسع نطاق؛ وذلك حينما قرّر مبدأ كرامة الإنسان باعتباره إنسانًا؛ فالناس جميعًا أمّة واحدة، ربّهم واحد، وأصلهم واحد: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2].

وتقوم أساس العلاقة الاجتماعيّة في الإسلام على مبدأين أو ركيزتين اثنتين؛ هما: المساواة، والأخوّة.

(1) سورة النساء، الآية 1.
(2) سورة الحجرات، الآية 13.

وقد توصّل بعض الباحثين -على سبيل المثال لا الحصر- في دراسته عن حقوق الإنسان في الإسلام إلى النتائج التالية:

1. إنّ الحقوق التي تضمّنها البيان العالميّ لحقوق الإنسان، هي من أبجديّات التعاليم الإسلاميّة المقرّرة في ديننا الحنيف.
2. أصالة المنهج الإسلاميّ في حفظ حقوق الإنسان وتميُّزه؛ بوضعه حقوق الإنسان وآليّات حفظها.
3. حديث الحضارة الغربيّة عن مبادئ حقوق الإنسان هي أثر من آثار الفكر الإسلاميّ التي انتقلت للغرب عبر وسائط الاتّصال والتفاعل التاريخيّ الذي اعترفوا به[1].

أولًا: علاقة المسلم بالمسلم وبالآخر في الإسلام:

1. أصالة احترام الإنسان في الإسلام:

في بحث أصالة احترام الإنسان يحضر هذا السؤال: هل الأصل في الإنسان أنْ يكون محترم النفس والعرض والمال، مع صرف النظر عن معتقده ودينه وعرقه، أم إنَّ الأصل هو عدم الاحترام؛ إلاّ مَنْ أخرجه الدليل؛ وهو المسلم، أو مَنْ كان بينه وبين المسلمين عقد معيّن يمنحه الاحترام؛ كأهل الذمّة؟

إن الإسلام ينظر إلى الآخر من منطلق الكرامة الإنسانيّة واعتبارها قيمة مطلقة يبني عليها الإسلام رؤيته الثقافيّة والاجتماعيّة، ويجعلها القاعدة الأساس في تشريعاته، فالآخر أيًّا كان، ولأيّ أمّة انتمى يشمله قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[2]. والآية -كما هو واضح- جاءت بصيغة العموم؛ أي إنّ تكريم الله هو لبني آدم، وليس لجماعة المؤمنين، أو لفئة

(1) انظر: الغزالي، محمد: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتّحدة، ط4، القاهرة، نهضة مصر، 2005م، ص7-8.

(2) سورة الإسراء، الآية 70.

دون غيرها من الناس، فالتكريم هنا مطلق يشمل البشر كافّة.

وعليه، فمن خلال الرؤية القرآنيّة، فالإنسان مكرّمٌ مع غضّ النظر عن جنسه، ومعتقده، وقيمته في الهرم الاجتماعيّ، حيث خلقه الله مكرّمًا، ولا يملك أحدٌ أن يُجرّده من كرامته التي أودعها الله في جبلَّته، وجعلها من فطرته وطبيعته، يستوي في ذلك المسلم الذي يؤمن بالقرآن كتاب الله، وبمحمد بن عبد اللّه رسول اللّه ونبيّه، وغير المسلم من أهل الأديان الأخرى، أو مَنْ لا دين له.فالكرامة البشريّة حقٌّ مشاعٌ يتمتّع به الجميع من دون استثناء، وهذه ذروة التكريم وقمّة التشريف. وعندما يصدر الخطاب الإلهيّ لبني آدم، فإنّ هذا الخطاب يُعتبر من أعلى الخطابات القرآنيّة من ناحية الشموليّة والعموميّة للأفراد. وقد تعدّدت مستويات الخطاب الذي يوجّهه الله إلى عباده في القرآن؛ فمن المؤمنين، إلى أهل الكتاب، إلى المسلمين، إلى بني آدم،... ولكلّ مستوى من الخطاب الإلهيّ دلالته الموحاة، والمدى الذي يبلغه معناه، والله سبحانه وتعالى يُخبر في هذه الآية بأنّه كرّم بني آدم كافّة؛ بصيغة الإطلاق.

هذا، وقد قامت مبادئ الإسلام وتعاليمه وقيمه كلُّها على احترام الكرامة الإنسانيّة وصونها وحفظها، وعلى تعميق الشعور الإنسانيّ بهذه الكرامة. وما دامت الرسالة الإسلاميّة تبتغي في المقام الأوّل: سعادة الإنسان وصلاحه، وتبتغي جلب المنفعة له ودرء المفسدة عنه، فإنّ هذه المقاصد الشريفة هي منتهى التكريم للإنسان؛ بجميع الدلالات الأخلاقيّة والمعاني القانونيّة للتكريم.

والإسلام في إحاطته للكرامة الإنسانيّة بهذا السياج المانع من جميع الآفات والأضرار التي يُمكن أنْ تَلحق بالكرامة الإنسانيّة، يتفوّق على جميع القوانين الوضعيّة والمواثيق الدوليّة الخاصّة بحقوق الإنسان.

ومن خلال هذا التأصيل للكرامة الإنسانيّة في التشريع، نستنتج أصالة احترام النفس الإنسانيّة؛ باعتبارها من أبرز مصاديق الكرامة لبني آدم.

2. المساواة الإنسانيّة والأخوّة الإسلاميّة[1]:

إنّ محتوى العلاقة التي يطرحها القرآن الكريم تعتمد على أمرين -كما تقدّم-؛ وهما: المساواة، والأخوّة.

وينبغي -دائمًا- تقويم أساس هذه العلاقة، وتشخيص مضمونها ومحتواها؛ الأمر الذي يجعل العلاقة الاجتماعيّة قائمة على أساس نظرة واقعيّة لحقيقة الإنسان وقيمته من ناحية، وطبيعة العلاقة الاجتماعيّة وتكوُّن البنية الاجتماعيّة من ناحية أخرى.

وفي هذا المجال يُقيم الإسلام أفضل العلاقات بين الناس على أساس أنّهم «**متساوون**» و«**متكافئون**» في الأصل، وأنّ بعضهم هو نظير بعضهم الآخر؛ فلا يمتاز أحدهم-بالأصل- على الآخرين؛ كما قال النبي الكريم ﷺ: «**أيها الناس، إنّ ربّكم واحد، وإنّ أباكم واحد، كلّكم لآدم؛ وآدم من تراب: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، وليس لعربي على عجمي فضل؛ إلا بالتقوى.ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: فليُبلِّغ الشاهد الغائب**»[2]، وإنّما تنشأ الاختلافات والامتيازات لعوامل وأسباب طارئة تنشأ من حركة الإنسان والمجتمع؛ بعضها حقّة وصحيحة؛ مثل: الامتياز بـ «**التقوى**»، و«**العلم**»، و«**الجهاد**»...، وبعضها باطلة وغير واقعيّة؛ مثل: الامتياز بكثرة الأموال والأولاد، أو القدرة والسلطة المادّيّة... وأمّا طبيعة العلاقة الاجتماعيّة التي يجب أنْ يقوم عليها البناء الاجتماعيّ ومحتواها؛ فهي علاقة الأخوّة الإسلاميّة والإيمانيّة، وهي -أيضًا- علاقة مساواة بين أبناء المجتمع الذي يقوم على أساس الإسلام والعقيدة الإسلاميّة.

فالمسلمون إخوة يتكافؤون ويتساوون في قيمتهم المعنويّة؛ وفي

---

(1) لمزيد من الاطّلاع انظر: الحكيم، محمد باقر: دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة، ط4، النجف الأشرف، مؤسّسة تراث الشهيد الحكيم قدس سره، 2007م، ج1، الباب السادس، الفصل الأوّل (أبعاد النظريّة الإسلاميّة في العلاقات)، ص471-500.

(2) الحرّاني، ابن شعبة: تحف العقول عن آل الرسول عليهم السلام، تصحيح وتعليق: علي أكبرالغفاري، ط2، قم المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، 1404هـ.ق/ 1363هـ.ش، خطبته ﷺ في حجّة الوداع، ص34.

الوقت نفسه فإنّ أواصر العلاقة والصلة بينهم تكون شبيهة بالأواصر والصلات التي تربط بين الناس؛ عندما يكونون من أب وأُمّ واحدة. وبذلك وضع الإسلام الصلة والعلاقة في العقيدة اجتماعيًّا موضع الصلة والعلاقة النسبيّة التكوينيّة (الأخوّة) وفي قيمتها وأهمّيّتها.

روى ثقة الإسلام الكلينيّ في الكافي من قصّة زواج «**جويبر**»؛ وهو رجل من أهل اليمامة، أسلم فحسن إسلامه، وكان رجلًا قصيرًا دميمًا محتاجًا، حيث أمره رسول الله ﷺ أنْ يخطب من زياد أحد رؤساء قبائل المدينة، وقال له رسول الله: «**... يَا جُوَيْبِرُ، إِنَّ اللَّه قَدْ وَضَعَ بِالإسلام مَنْ كَانَ فِي الْجَاهليَّةِ شَرِيفًا، وشَرَّفَ بِالإسلام مَنْ كَانَ فِي الْجَاهليَّةِ وَضِيعًا، وأَعَزَّ بِالإسلام مَنْ كَانَ فِي الْجَاهليَّةِ ذَليلًا، وأَذْهَبَ بِالإسلام مَا كَانَ مِنْ نَخْوَةِ الْجَاهليَّةِ وتَفَاخُرِهَا بِعَشَائِرِهَا وبَاسِقِ أَنْسَابِهَا، فَالنَّاسُ الْيَوْمَ كُلُّهُمْ أَبْيَضُهُمْ وأَسْوَدُهُمْ وقُرَشِيُّهُمْ وعَرَبِيُّهُمْ وعَجَمِيُّهُمْ مِنْ آدَمَ، وإِنَّ آدَمَ خَلَقَه اللَّه مِنْ طِينٍ، وإِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّه -عزّ وجلّ- يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَطْوَعُهُمْ لَه وأَتْقَاهُمْ، ومَا أَعْلَمُ يَا جُوَيْبِرُ لأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ فَضْلًا؛ إِلَّا لِمَنْ كَانَ أَتْقَى لِلَّه مِنْكَ...**»[1].

ولم يغفل عن العلاقة بالآخر التي قوامها العلاقة الإنسانيّة؛ كما يُفهَم ذلك من قول الإمام علي عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: «**وأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ والْمَحَبَّةَ لَهُمْ واللُّطْفَ بِهِمْ، ولَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعًا ضَارِيًا تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّين، وإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ**»[2].

وقد حثّت الراويات على المجاملة العامّة وحسن الخلق مع الناس جميعًا؛ ما يعني أنّ الأصل هو الاحتفاظ بالعلاقة الاجتماعيّة على المستوى

(1) الكليني، محمد بن يعقوب: الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، ط3، طهران، دار الكتب الإسلاميّة؛ مطبعة حيدري، 1367هـ.ش، ج5، كتاب النكاح، باب أنّ المؤمن كفو المؤمنة، ح1، ص340.

(2) العلويّ، محمد بن الحسين بن موسى (الشريف الرضي): نهج البلاغة (الجامع لخطب الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ورسائله وحكمه)، شرح: محمد عبده، ط1، قم المقدّسة، دار الذخائر؛ مطبعة النهضة، 1412هـ.ق/ 1370هـ.ش، ج3، رسالة53، ص84.

الإنسانيّ؛ ما لم تطرأ أوضاع استثنائيّة تفرض موقفًا آخر؛ كالبراءة، أو القطيعة. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**مُجَامَلَةُ النَّاسِ ثُلُثُ الْعَقْلِ**»[1].

ومن خلال هذا العرض، يُمكننا فهم موقف الإسلام من الكفّار الذين ذكرهم القرآن الكريم، حيث فصّل القرآن في العلاقة العامّة بين الكفّار والأعداء الذين يتّخذون موقفًا سياسيًّا أو عسكريًّا عدوانيًّا ضدّ المسلمين، وبين الكفّار العاديّين الذين لا موقف لهم عدائيّ، حيث نهى القرآن الكريم عن ولاء القسم الأوّل ومودّته، وأجاز البرّ والقسط للقسم الثاني[2]: ﴿لاَّ يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[3].

ويشير إلى ذلك -أيضًا- ما ورد من تأكيدٍ على أهمّيّة الدعوة لله -تعالى- والحوار بالأسلوب الذي يتّسم بالعقلانيّة والمحافظة على العلاقة الإنسانيّة الاجتماعيّة العامّة، من خلال الحكمة، والموعظة الحسنة مع الكفّار، أو الآخرين من غير المسلمين، أو الناس عامّة؛ بدون فرق بين المسلم وغيره. وكذلك ما ورد في القرآن الكريم والحديث الشريف من النهي عن سبّ الكفّار؛ وذلك من أجل تجنّب تصعيد الموقف السلبيّ منهم، حيث إنّهم سوف يردّون السبّ بمثله بطبيعة الحال.

وبالنتيجة، فإنّ كيان الإسلام ومجد المسلمين يستدعيان الحفاظ على الاستقلال في الثقافة والسياسة والاقتصاد، والحذر من وقوعهم في حبائل الكفر، ولكنّ ذلك كلّه لا يُنافي مداراة الكفّار ودعوتهم إلى الحقّ، بل والبرّ

(1) الكليني، الكافي، م.س، ج2، كتاب العشرة، باب التحبّب إلى الناس والتودّد إليهم، ح2، ص643.

(2) ورد في كتب الفقه جواز الصدقة على الكافر؛ وهي جزء من آداب تعامل الإسلام مع الآخرين، وهذا يعني أنّ الكفر لا يسلبه صفته الإنسانيّة؛ ما لم يدخل في عداد الكافر الحربيّ. وقد ورد في فتاوى فقهائنا المعاصرين ما يدلّ على أهمّيّة الودّ والإحسان إلى الكفّار؛ ما لم يكونوا من أعداء الإسلام والمسلمين.

(3) سورة الممتحنة، الآيتان 8-9.

والإحسان إليهم وتأليفهم؛ كي ما يرغبوا في الإسلام، بل وإيجاد العلاقات السياسيّة والاقتصاديّة معهم؛ إذا كان صلاحًا للإسلام والمسلمين مع رعاية الاحتياط.

قال -تعالى- بعد الأمر بقتال الكفّار: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا﴾[1]، ثمّ بعد الأمر بقتال الكفّار، قال -تعالى-: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾[2]. وقد عاهد رسول الله ﷺ مشركي مكّة، ويهود المدينة، ونصارى نجران، وغيرهم، وكان يُعاشرهم ويُعاملهم بالآداب والأخلاق الحسنّة.فعنه ﷺ: **«ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس؛ فأنا حجيجه يوم القيامة»**[3].

وبلغ احترام الإسلام للذمّيّ حدًّا يسمح له أنْ يُخاصم إمام المسلمين ويُطالبه بالبيّنة لدعواه؛ كما اتّفق ذلك في قصّة درع أمير المؤمنين ومخاصمته في عصر خلافته مع رجل من اليهود عند شريح القاضي. ففي الرواية «**أنّه مضى عليّ في حكومته إلى شريح مع يهوديّ، فقال:يا يهوديّ، الدرع درعي، ولم أبع، ولم أهب. فقال اليهودي: الدرع لي؛ وفي يدي، فسأله شريح البيّنة، فقال عليه السلام: هذا قنبر والحسين يشهدان لي بذلك. فقال شريح: شهادة الابن لا تجوز لأبيه، وشهادة العبد لا تجوز لسيّده؛ وإنّهما يجرّان إليك. فقال أمير المؤمنين: ويلك يا شريح، أخطأت من**

(1) سورة النساء، الآية 89.

(2) سورة النساء، الآية 90.

(3) السجستاني، سليمان بن الأشعث: سنن أبي داود، تحقيق وتعليق: سعيد محمد اللحام، ط1، بيروت، دار الفكر، 1410هـ.ق/ 1990م، ج2، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمّة إذا اختلفوا بالتجارات، ح3052، ص45.

وجوه: أمّا واحدة؛ فأنا إمامك تدين الله بطاعتي، وتعلم أنّي لا أقول باطلًا، فرددت قولي وأبطلت دعواي، ثمّ سألتني البيّنة، فشهد عبد، وأحد سيّدي شباب أهل الجنّة، فرددت شهادتهما، ثمّ ادّعيت عليهما أنّهما يجرّان إلى أنفسهما. أما إنّي لا أرى عقوبتك إلاّ أن تقضي بين اليهود ثلاثة أيّام. أخرجوه. فأخرجه إلى قبا، فقضى بين اليهود ثلاثًا، ثمّ انصرف. فلمّا سمع اليهوديّ ذلك، قال: هذا أمير المؤمنين جاء إلى الحاكم، والحاكم حكم عليه، فأسلم، ثمّ قال: الدرع درعك سقطت يوم صفّين من جمل أورق فأخذتها»[1].

وقد وجد اليهود والنصارى والمجوس في ظلّ الحكومات الإسلاميّة من كرامة العيش والحرمة في جميع مجالات الحياة؛ من السياسة، والاقتصاد، والحرّية في اكتساب العلوم والصنائع...؛ ما لم يجدوه في ظلّ الحكومات الأخرى[2].

3. مستويات العلاقة في المنظومة الاجتماعيّة:

إنّ الإسلام، على الرغم من نظرته بالمساواة في أصل العلاقة الإنسانيّة ومحتواها المتمثّل في «**الأخوّة**» بين أبناء المجتمع الإسلاميّ، لم يغفل في هذه النظرة عن «**الواقع الاجتماعيّ**»، و«**الحقائق الموضوعيّة**» القائمة في أطراف العلاقة الاجتماعيّة؛ حيث نرى أنّه لاحظ في هذه العلاقة مستويين رئيسين ينطلقان من الواقع الاجتماعيّ وتطوّر العلاقة ضمن هذا الواقع؛ بسبب الوضع النفسيّ، والروحيّ، والفكريّ لأطراف العلاقة؛ وهي:

أ. العلاقة العامّة التي تفرضها طبيعة وجود الإنسان في المجتمع، والتي يُحقّق الإنسان من خلالها ارتباطه بأفراد المجتمع الذي يعيش فيه،

(1) المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار، تحقيق: محمد الباقر البهبودي؛ يحيى العابدي الزنجانيّ؛ كاظم الموسوي المياموي، ط3، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، 1403هـ.ق/ 1983م، ج41، ص56-57.

(2) انظر: المنتظري، حسين: نظام الحكم في الإسلام (تلخيص كتاب «دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلاميّة»)، تلخيص وتعليق: لجنة الأبحاث الإسلاميّة- مكتب الشيخ منتظري، ط1، طهران، هاشميّون، 1380هـ.ش، مداراة الكفّار وحفظ حقوقهم وحرمتهم، ص431-432.

ويكوِّن جزءًا منه ضمن الإطار العامّ للعلاقات. وفي هذا المجال يُمثِّل الإسلام الإطار العامّ لهذه العلاقة، والقاسم المشترك بين أطرافها في نظرته إلى وحدة المجتمع التي تقوم على أساس الالتزام بالإسلام والقبول به.

وفي هذا المستوى من العلاقة تحفظ الدماء والأمـوال والمواثيق والعهود، وكذلك المشاركة والمساهمة في المسؤوليّة الاجتماعيّة العامّة؛ كالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وكذلك الالتزام بالشعائر الإسلاميّة والآداب الاجتماعيّة العامّة؛ مثل: حضور صلوات الجماعة، وتشييع الجنائز، وعيادة المرضى، والمراسيم الاجتماعيّة؛ كالزواج، وغيرها.

ب. العلاقة الخاصّة التي يُطلق عليها في الفهم والنظر الاجتماعيّين العرفيّين (الصداقة)؛ بأنْ يتّخذ الشخص الآخر صديقًا ورفيقًا.

وهذا المستوى، وإنْ كان يشارك المستوى الأوّل في عموم الآثار والنتائج والالتزام، ولكنّه يمتاز عنه ببعض الشروط والحقوق والواجبات الإضافيّة؛ مثل: الحقوق الماليّة، وبعض الحقوق الثقافيّة، وغير ذلك.

وأهمّ علاقة أكّد عليها الإسلام هي الأخوّة في الله -تعالى-. وقد سعى أهل البيت عليهم السلام إلى تطوير هذه العلاقة؛ روحيًّا ونفسيًّا؛ لتصل إلى درجتها العالية، فتصبح متقدِّمة على الأخوّة النسبيّة في مضمونها الإنسانيّ والاجتماعيّ والروحيّ، حيث يكون الحبّ والودّ فيها خالصًا لله -تعالى- ومن أجله، وتتّصف في آثارها ونتائجها بالمساواة للإنسان بنفسه، بل حتّى إيثار أخيه المؤمن على نفسه.

وقد بيّن الإسلام، في مجال العلاقات الاجتماعيّة العامّة، اختصاص بعض الفئات والأصناف من الناس بمعاملة اجتماعيّة خاصّة، وإنْ كان يؤمن بالمساواة بين الناس في الأخوّة الإنسانيّة، كما تقدّم، حيث نُلاحظ أنّ أهل البيت عليهم السلام خصّوا فئات اجتماعيّة بمعاملة خاصّة في هذه العلاقات؛ لأسباب موضوعيّة مختلفة، تُقرّها الفطرة الإنسانيّة أو المقاييس العقليّة

الواقعيّة القائمة على أساس المصالح الاجتماعيّة العامّة.

وهذه الأسباب قد تكون إنسانيّة أو دينيّة أو سياسيّة ترتبط بالأبعاد المختلفة للرؤية الإسلاميّة عمومًا، أو في مجال العلاقات الاجتماعيّة؛ بصفة خاصّة، ما يجعل الأمور تأخذ نصابها وموقعها الطبيعيّ في الهيكليّة العامّة للمجتمع وأطراف العلاقة الاجتماعيّة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المعاملة الخاصّة في مواضع عدّة؛ منها: قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾[1].

وعلاقة كهذه مع الأرحام، والأقربين منهم خاصّة، والأبوين بصفة أخصّ، تمنح لهم امتيازات في التعامل الاجتماعيّ، حيث يجب الاحتفاظ بأصل العلاقة الاجتماعيّة مع الرحم، ولا يجوز قطيعته، ويجب إكرام الأبوين، والبرّ بهما حتّى لو كان ذلك بالتزام الطاعة لهما، وامتثال أوامرهما ضمن الحدود الشرعيّة.

وكذلك العلاقة مع العلماء وأهل الفضل والمعرفة؛ حيث يخصّهم الإسلام بمعاملة اجتماعيّة خاصّة أيضًا؛ لاعتبارات أخلاقيّة موضوعيّة واجتماعيّة.

وكذلك العلاقة مع الجيران؛ حيث يستحقّون معاملة خاصّة في العلاقات العامّة. ويبدو واضحًا أنّ البعد في هذه المعاملة الخاصّة إنّما هو اجتماعيّ؛ حيث يُراد من خلال ذلك توطيد دعائم العلاقات الاجتماعيّة من خلال الواقع الجغرافيّ للمجتمع، وتحقيق التعاون في إيجاد البنية الاجتماعيّة المحلّيّة السليمة والقويّة.

وكذلك العلاقة مع الضعفاء من الناس، فلا بدّ من معاملتهم معاملة خاصّة أيضًا؛ سواء أكان هذا الضعف بسبب الوضع الطبيعيّ للتركيبة الجسميّة؛ مثل: الأطفال، والنساء، والشيوخ، أم كانوا من قبيل الذين

(1) سورة النساء، الآية 36.

يعرض لهم الضعف؛ مثل: المعوّقين، والمتخلِّفين؛ حيث يبدو من الواضح البعد الإنسانيّ في هذا الجانب من التعامل؛ فعن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه قال في حديث له: «**وارحموا ضعفاءكم، واطلبوا الرحمة من الله بالرحمة لهم**»[1]، أم كان هذا الضعف بسبب الأوضاع الاقتصاديّة؛ مثل: الفقراء، والمساكين، وأبناء السبيل، وغيرهم من المحتاجين؛ فعن أمير المؤمنين، عن رسول الله، أنّه قال في خطبة له: «**وتصدّقوا على فقرائكم ومساكينكم، ووقّروا كباركم، وارحموا صغاركم، وصلوا أرحامكم**»[2]، أم كان بسبب الأوضاع الاجتماعيّة؛ مثل: اليتامى، والمملوكين، والعمّال، والمستأجَرين والمستخدَمين من الناس، الذين تفرض عليهم ظروفهم الاجتماعيّة أن يكونوا تحت إدارة بعض الأشخاص وولايتهم.

ونختم بالعلاقة مع ذرّية الرسول صلى الله عليه وآله؛ فهناك رعاية ومعاملة خاصّة لذرّية رسول الله صلى الله عليه وآله؛ من أولاد الإمام علي عليه السلام والسيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام جاء تأكيدها؛ وذلك بسبب انتمائهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وإكرامًا له، وتقديرًا لحقّه، وتقديسًا لشأنه؛ فعن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «**لَا يُقَبِّلُ رَأْسُ أَحَدٍ ولَا يَدُه؛ إِلَّا يَدُ رَسُولِ اللَّه، أَوْ مَنْ أُرِيدَ بِه رَسُولُ اللَّه**»[3].

وعن الحسين بن خالد، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنّه قال: «**النظر إلى ذرّيّتنا عبادة، قلت: النظر إلى الأئمّة عليهم السلام منكم، أو النظر إلى ذرّيّة النبيّ صلى الله عليه وآله؟ فقال: بل النظر إلى جميع ذرّيّة النبيّ صلى الله عليه وآله عبادة؛ ما لم يفارقوا منهاجه، ولم يتلوّثوا بالمعاصي**»[4].

(1) المجلسي، بحار الأنوار، م.س، ج75، ص83.
(2) الحرّ العامليّ، محمد: وسائل الشيعة، تحقيق ونشر: تحقيق: مؤسّسةآل البيت عليهم السلام لإحياءالتراث، ط2، قم المقدّسة، مطبعة مهر، 1414هـ.ق، ج10، أبواب أحكام شهر رمضان، باب تأكّد استحباب الاجتهاد في العبادة ولا سيّما الدعاء والاستغفار، ح13494(20 في الباب)، ص313.
(3) الكليني، الكافي، م.س، ج2، كتاب الإيمان والكفر، باب التقبيل، ح2، ص185.
(4) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، م.س، ج12، أبواب أحكام العشرة في السفر، باب استحباب النظر إلى جميع صلحاء ذرّية النبي صلى الله عليه وآله، ح16383(1 من الباب)، ص311.

ثانيًا: الوحدة الإسلاميّة والإنسانيّة في القرآن:

تُعدّ قضيّة «**الوحدة الإنسانيّة والإسلاميّة**» إحدى الهبات والنعم الإلهيّة الكبرى، ومن الأهداف الرئيسة للشرائع السماويّة؛فمفهوم الوحدة والتضامن ضرورة فطريّة، وعقليّة، وشرعيّة، وسياسيّة، واجتماعيّة، وهو من أبرز مقوّمات المجتمع والحضارة الإنسانيّة. وليس أمام الإنسان من خيار غير القبول بها، ليس من أجل استمرار الحياة الاجتماعيّة فحسب؛ وإنّما من أجل تحقُّق الحياة المنشودة.

وفي عصرنا الراهن، وبالأخصّ في القرنين الماضيين، ومنذ تأسيس الحركة الوهّابية؛ وصولًا إلى تأسيس الصهيونيّة العالميّة، إلى ما نشهده في الأعوام الأخيرة من تفعيل للحركات التكفيريّة، فقد شهد العالم الإسلاميّ العديد من الاختلافات المدمّرة؛ نتيجةً لعمل تلك الحركات، طبعًا مضافًا إلى عوامل عدّة أخرى؛ ما مهّد الأرضيّة لهجوم الغرب وأعداء الأمّة الإسلاميّة لا على المسلمين فحسب؛ بل على الإسلام نفسه وعلى نبيّه ﷺ، حيث شكّلت الاختلافات والتفرقة تهديدًا حقيقيًّا للعالم الإسلاميّ، ولكلّ مجتمع من مجتمعاته.

ولكن على الرغم من هذا الواقع المأساويّ، فقد بُذِلَت جهودٌ قيّمة خلال القرون الأخيرة على طريق وحدة المسلمين، اضطلع بها مفكّرون وعلماء كبار؛ أمثال: السيّد جمال الدِّين الأسد آبادي، وعبد الرحمن الكواكبيّ، والشيخ محمد عبده، والشيخ محمود شلتوت، والسيد عبد الحسين شرف الدِّين، والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، والسيّد البروجرديّ؛ كما نهض رجال كبار في العديد من المجتمعات الإسلاميّة على خطى هؤلاء العظماء، رافعين نداء الوحدة، ومبادرين إلى مشاريع تأسيسيّة؛ من قبيل: دار التقريب بين المذاهب الإسلاميّة، فاستطاعوا أن يُحقّقوا إنجازات قيّمة في هذا المجال؛ وعلى رأس هؤلاء كلّهم كان الإمام الخميني قدس سره؛ بصفته مفكّرًا وفقيهًا كبيرًا، وباعتباره قائدًا للنهضة الإسلاميّة في إيران، ومُلهمًا

لجميع حركات التحرُّر في العالم، فقد أولى الإمام قدس سره قضيّة الوحدة وأبعادها المختلفة اهتمامًا خاصًّا، واستطاع أن يخطو خطوات عمليّة أساس على طريق تحقيقها بين المجتمعات الإسلاميّة، وخطى على خطاه ونهجه قائد الثورة الإسلاميّة الإمام السيّد علي الخامنئيّ دام ظله.

1. الأنا والآخر في القرآن:

الأنا والآخر في الرؤية القرآنيّة الكونيّة والخطاب القرآنيّ، ذكرًا كان أم أنثى، أسود أم أبيض، مؤمنًا أم غير مؤمن؛ هم جميعًا «**إنسان**»، يجمعهم ويوحِّد بينهم انتماء وحدة الكلّ الإنسانيّ،وقد خُلِقُوا سواسيّة في «**الأسرة الإنسانيّة الكبرى**»، وهم ينتمون إلى نفس واحدة يتفرّعون منها، فيكوّنون شعوبًا وأممًا تجمعهم المودّة والرحمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1]. فالإنسان -أيًّا كانت هويّته- هو في الرؤية القرآنيّة كائن واحد وكيان واحد.

والاختلاف في الرؤية القرآنية ليس اختلافًا عنصريًّا، وليس استعلاءً، ولكنّه تكامل إنسانيّ إعماريّ «**خيِّر**» ضروريّ لوجود الفرد والجماعة. والأنا والآخر ألوان وألسنة يظهر فيها إبداع الله -تعالى- في خلقه؛ بداية بالأفراد، وانتهاءً بالشعوب والقبائل، وأمّا في الجوهر الإنساني فـ«**لا فضل لعربيّ على أعجميّ، ولا لأبيض على أسود؛ إلا بالتقوى**»[2]، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾[3].

(1) سورة النساء، الآية 1.
(2) انظر: أبو سليمان، عبد الحميد: الرؤية الكونيّة الحضاريّة القرآنيّة: المنطلق الأساس للإصلاح الإنسانيّ، ط1، القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 2009م.
(3) سورة الروم، الآية 22.

2. الـتأصيل القرآنيّ للوحدة:

إنّ مبدأ الوحدة في الرؤية القرآنية ليس مجرّد فكرة نظريّة أو فلسفة مثاليّة؛ وإنّما هو متجذّر اجتماعيًّا في وحدة الجنس البشريّ، وروحيًّا في وحدة الدِّين ورسالته؛ من حيث مصدرها وغايتها معًا؛ وبيان ذلك من خلال النقاط التالية:

أ. تأكيد القرآن الكريم على وحدة الجنس البشريّ؛فقد قرّر القرآن وحدة الجنس والنسب للبشر جميعًا، فالناس لآدم عليه السلام، وإنّ حكمة التقسيم إلى شعوب وقبائل؛ إنّما هي التعارف لا التخالف، والتعاون لا التخاذل، والتفاضل بالتقوى والأعمال الصالحة التي تعود بالخير على المجموع والأفراد: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

ب. تأكيد القرآن الكريم على وحدة الأديان السماويّة،فالأديان دين واحد من ناحية المصدر والغاية. ولذا،رسمت الآيات القرآنية وحدة «**الدِّين**» في أصوله العامّة بشكل لا يقبل اللبس، وعدّت الفرقة في الدِّين والخصومة باسمه إثمًا يتنافى مع أصوله وقواعده، ويتناقض مع غايته ومقاصده: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ﴾[2].

ج. رسمت الآيات القرآنيّة مسارًا دقيقًا في تعامل المسلمين مع غيرهم هو الأصل في أيّ علاقة مع غير المسلم ما لم يكنْ كافرًا حربيًّا،فيُعتبر خارجًا عن دائرة العلاقات البشريّة المبنية على أساس الإنسانيّة؛ كما أسلفنا. وهذه المسارات هي التالية:

-المسار الأوّل: وهو يقوم على أساس المصلحة الاجتماعيّة والخير الإنسانيّ بين المسلمين وغيرهم من أهل العقائد والأديان. يقول تعالى:

(1) سورة الحجرات، الآية 13.
(2) سورة الشورى، الآية 13.

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1].

-المسار الثاني: تأصيل ثقافة الحوار أو الجدال بالتي هي أحسن مع الآخر، وليس ثقافة العدوان. قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[2].

د. إنّ مقتضى هذه الرؤية الوحدويّة القرآنيّة هي أصالة السلم والسلام في نشر الدعوة الإسلاميّة في جميع أقطار الدنيا، فالنبيّ ما بُعِثَ إلا رحمة للعالمين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[3]. وأيّ تفرقة تُصيب المجتمعات الإنسانيّة، وبالأخصّالإسلاميّة، هي خروج عن أصالة السلام والرحمة اللذين هما أساس بنية الدعوة الإسلاميّة.

3. مفهوم الوحدة في القرآن:

إنّ مفاهيم الوحدة والاتّحاد وغيرهما تقع في قِبَال غيرها من المفاهيم؛ كالتكثُّر، والتشتُّت، والاختلاف، والتفرقة، ونظائرها. ومن الناحية الفلسفيّة: الوحدة في مقابل الكثرة.

وأيّ عمل أو تنظير فكريّ وثقافيّ، أو أيّ حراك اجتماعيّ يتّجه باتّجاه الإقصاء أو التخفيف من حدّة التكثُّر والتشرذم والتشتُّت وما شابه ذلك، فهو يتّجه باتّجاه الوحدة إلى أنْ يصل إلى وحدة واتّحاد حقيقيّين.

والمنطلق الأساس لفهم معنى الوحدة هو قول الله -تعالى-: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ

(1) سورة الممتحنة، الآيتان 8 - 9.
(2) سورة العنكبوت، الآية 46.
(3) سورة الأنبياء، الآية 107.

قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

ومفهوم الوحدة في هذه الآية له جانبان: إيجابيّ؛ وهو الأمر بالاعتصام بحبل الله -تعالى-: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾، وسلبيّ؛ وهو: النهي عن التفرُّق: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾.

والأسلوب التربويّ المعتمد في الآية هو أسلوب التذكير بالنعم والنعمة الإلهيّة الكبرى؛ وهي الوحدة والاتّحاد بين أبناء المجتمع التي حصلت بعد الإسلام وبعثة النبي ﷺ، وإنّ تَرْك ذلك سيؤدّي بشكل طبيعيّ ضمن السنن الكونيّة الإلهيّة للرجوع إلى المجتمع الجاهليّ، حيث قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾.

ولهذا الأسلوب آثار إيجابيّة جمّة، فعندما يذكر الإنسان النعم الإلهيّة يُصبح شكورًا حامدًا للّه -تعالى-، وتزداد محبّته به. ولهذا الأسلوب -أيضًا- آثار إيجابيّة عدّة؛ مثل: العبادة، والتقوى، واتّباع الصراط المستقيم، والأمل، والفلاح، والأمان من العذاب.

يقول العلامة الطباطبائي قدس سره بصدد تفسيره لهذه الآية: «هذه الآية تتعرّض لحكم الجماعة المجتمعة؛ والدليل عليه قوله: ﴿جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾، فالآيات تأمر المجتمع الإسلاميّ بالاعتصام بالكتاب والسنّة؛ كما تأمر الفرد بذلك»[2].

ويقول الإمام الخميني قدس سره: «لقد أمر الله -تبارك وتعالى- بالاجتماع والاعتصام بحبل الله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾. أمر بالاجتماع والتمسُّك بحبل الله؛ إذ ليس كلّ اجتماع مطلوبًا؛ بل الاعتصام بحبل الله هو المطلوب،والأمر ذاته بالنسبة إلى ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾. اسم الربّ هو هذا الحبل الذي يجب على الجميع أن يعتصموا به، ادعوا الناس إلى الوحدة، ادعوهم لئلّا يتشتّتوا فئات وجماعات[3].

(1) سورة آل عمران، الآية 103.

(2) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، لا ط، قم المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، لا ت، ج3، ص369.

(3) الخميني، روح الله: صحيفة النور، ط1، طهران، مؤسّسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني قدس سره، 1430هـ.ق/ 2009م، ج8، ص334.

فالذي يُشكِّل حقيقة الوحدة والاتّحاد وماهيّتهما؛ إنّما هي «**العبودية**» تجاه «**ربوبيّة**» الحقّ المتعاليو«**ألوهيّته**»، و«**الاعتصام بحبل الله**» يُفيد هذا المعنى. وإنّ ما يُستنبط من الآية الكريمة ثلاث نكات رئيسة؛ هي:

-(جميعًا) التي تُشير إلى الإرادة الجماعيّة والاجتماع.

-(واعتصموا بحبل الله)؛ وهو الاعتصام بالحبل الإلهيّ في حالة الاجتماع، ومثل هذا يوضّح محور الوحدة وبنيانها وماهيّتها؛ وهو المجتمع.

-(ولا تفرّقوا)؛ وتعني النهي عن التفرقة والتباعد. فمع وجود الاعتصام بحبل الله -تعالى- تنتفي في الحقيقة التفرقة والتشتُّت؛ لأنّ طيّ طريق الحقّ ينبغي أن يكون بصورة جماعيّة وشاملة، وبمعزل عن الاختلاف والفرقة.

وقد يتصوّر أحد أنّ الوحدة في اتّفاق المسلمين في جميع شؤونهم العقديّة والعباديّة، وفي جميع العادات والتقاليد... أي أنْ ينضوي المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها تحت لواء حكومة واحدة، وقانون واحد، وسياسة واحدة، ونظام سياسيّ واقتصاديّ واحد، أو في انصهار القوميّات والعناصر والشعوب في مجموعة بشريّة واحدة خالية من هذه الاختلافات كلّها. مثل هذه التصوّرات الخياليّة تجعل مفهوم الوحدة مستحيلًا؛ لأنّه يتعارض مع سنن اللّه -تعالى- والفطرة والطبيعة البشريّة.

ولننظر في تحديد الإسلام للوحدة ومراده منها، لا بدّ من تحرّي ثلاثة مجالات؛ هي:

- الاسم الذي أطلقه الإسلام على المجموعة الإسلاميّة الموحَّدة.
- ما ذكره الإسلام من صفات وواجبات لهذه المجموعة.
- أهداف هذه المجموعة ومقاصدها.

وتتّضح هذه الأمور الثلاثة فيما يلي، حيث يطلق القرآن الكريم على هذه المجموعةِ البشريّةِ المقصودةِ اسمَ المؤمنين أو المسلمين؛ لما يتحلّى به أفراد هذه المجموعة من إيمان وإسلام. وهذه التسمية تُقابل

المجموعات البشريّة الأخرى؛ من اليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئين، أو المشركين.

وثَـمَّة لفظ آخر يُطلقه القرآن هو «**الأمّة**»، ويظهر أنّه أكثر تبيينًا لمفهوم الوحدة بين الجماعة الإسلاميّة: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾[1]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[2]، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾[3]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾[4]. فهذه الآيات الكريمات وأمثالها تُطلق على أتباع كلّ دين إلهيّ اسم «**الأمّة**»، فما الذي تنطوي عليه هذه الكلمة من معان؟

الأمّة من «**أمم**» وتتضمّن معاني الاقتداء والاتّباع، والقصد والهدف، والقيادة والزعامة، وفي القرآن بمعنى المجموعة البشريّة المنضوية تحت لواء دين واحد، وعلى هذا المعنى فُسّرت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ كما وردت بمعنى المقتدى والمحتذى؛ وعليه فُسِّرت الآية: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾.

وانطلاقًا من المعاني اللغويّة لكلمة «**أمّة**» واستعمالها في القرآن الكريم، نفهم أنّ «**الأمّة**» جماعة بشريّة ذات مسلك واحد وطريقة واحدة وهدف واحد وقيادة واحدة. إنّها تتضمّن مفهوم الحركة تجاه قبلة واحدة وجهة واحدة. ومثل هذه المجموعة، بهذه الخصائص، لا بدّ من أن تتوافر فيها مشتركات أخلاقيّة وروحيّة وثقافيّة[5].

(1) سورة الأنبياء، الآية 92.
(2) سورة البقرة، الآية 143.
(3) سورة يونس، الآية 47.
(4) سورة النحل،الآية 36.
(5) انظر: الخراساني، واعظ زاده: «الوحدة الإسلاميّة عناصرها وموانعها»، مجلة رسالة التقريب، فصليّة متخصّصة محكّمة تُعنى بقضايا التقريب بين المذاهب ووحدة الأمّة الإسلاميّة، تصدر عن المجمع العالميّ للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة، السنة الرابعة، العدد ١٥، محرّم-ربيع الأوّل 1418هـ.ق/ 1997م، ص9-10.

ثالثًا: أصالة الوحدة في التشريع الإسلاميّ:

إنّ الوحدة ليست تنظيرًا سياسيًّا، أو عملًا مجامليًّا أو آنيًّا ينطلق من انفعالات محدّدة، بل هي من صميم رؤية الإسلام بجميع تشريعاته ونظمه، وهي جزء أصيل من مشروع الإسلام وحاكميّته في الأرض؛ حيث إنّه دين التوحيد والوحدة.

وقد أكد الإمام موسى الصدر في كثيرٍ من خطاباته أنّ الطائفيّة مؤدّية إلى التشتُّت والتشرذم، وأنّ التشيُّع ليس معزولًا عن حركة الأمّة الإسلاميّة، بل هو في صميمها وفي طليعتها وصفوتها التي تدافع عن مقدّسات الإسلام ومصالح المسلمين، حيث يقول: «وبذلك نتمكّن أن نعتبر التشيُّع لعليّ عليه السلام في ينابيعه هو رؤية الطليعة المناضلة وسلوك الروّاد؛ وبتعبير آخر: إنّه محاولة الاحتفاظ بالإسلام بوصفه حركة، لا مؤسّسة ذات مصالح ومنافع ذاتيّة. وقد برز بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله موقف محدّد من عليّ عليه السلام وشيعته؛ وهو أنّهم أصرّوا على ضرورة تعيين خليفة الرسول صلى الله عليه وآله بالنصّ الدِّينيّ، لا بالاختيار والتعيين، واعتبروا أنّ هذه المهمّة، وهي بناء المجتمع الجديد على ضوء القيم والمفاهيم الإسلاميّة، والذي بدأ ببنائه الرسول صلى الله عليه وآله نفسه، هذه المهمّة تبلغ من الدقّة درجة لا يمكن تفويضها إلى الناس؛ وهم في بداية إسلامهم؛ ذلك لأنّ تطبيق المبادئ للمرّة الأولى بصورة تسمو على المصالح الذاتيّة وعلى الآراء المختلفة، هو مسألة بالغة الخطورة والتأثير على واقع الإسلام وعلى التاريخ... وعلى الرغم من هذا الموقف الأساس، فقد لاحظ عليٌّ عليه السلام وشيعته بعد الإعلان عن موقفهم، لاحظوا خطورة الوضع وحداثة عهد الناس بالإسلام، وإمكانيّة انفجار المجتمع الجديد، فوقفوا مع الخلفاء مؤيّدين، ناصحين، مدافعين عن النظام، وأمدّوا الأمّة بما كان عندهم من روايات نبويّة واجتهادات ومواقف، وكانوا في صميم المجتمع الإسلاميّ غير منفصلين ولا متربّصين ولا شامتين، حتّى أصبح القول المأثور عن أحد الخلفاء الراشدين: لا أبقاني الله لمعضلة ليس

فيها أبو الحسن؛ أصبح مثلًا. واستمرّ الأئمّة من آل البيت عليهم السلام في هذا الخطّ، يصونون الإسلام بمواقفهم، التي كانت تتنوّع حسب مواقف الخلفاء وحسب استجابة الأمّة... ومهما فعلوا بنا، بقينا نحن الشيعة في خدمة المسلمين جميعًا، لسنا فئويين؛ فنحن طليعة المسلمين، نموت لأجل الجميع،لا لأجلنا نحن. هذا هو السلوك التاريخيّ للشيعة، هكذا أنا أفهم التشيُّع، أمّا مذهب لهذا أو فئة لهذا لها مصالح وتنظيمات خاصّة، فليس هناك شيء من هذا. من الطبيعي أن يكون هناك مواقف وآراء تختلف عن هذا الخطّ العامّ، ولاسيّما بعد القرن العاشر الهجريّ، عصر الانحطاط. كثيرٌ من الكتب والخطب والمواقف والعادات عند الشيعة كان في مقام ردّ فعل، والردّ العاطفيّ على الاضطهاد العنيف الذي كان يمارس ضدّهم»[1].

إنّ الوحدة الإسلامية تعتبر قاعدة من قواعد التشريع الإسلاميّ؛وبالأخصّ في الفكر المقاصديّ للشريعة، ومن أوائل هذه القواعد: قاعدة مقصد تحقيق الوحدة الإسلاميّة،فأوّل مقصد من مقاصد الأحكام السلطانيّة توخّي تحقيق الوحدة الإسلاميّة؛ فهي مقصد من المقاصد الكبرى على مستوى الأمّة في التشريع الإسلاميِّ، ولا شكَّ في أنَّ هذا المفهوم مقتبس من توحيد الله عزّ وجلّ، وأنَّ هذه الأمَّة أمَّة توحيد واتّحاد: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾، ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾، ففلسفة المقاصد تنطوي على أحكام تتناسب وتحقيق مقصود الشارع من خلقهم إخوة متعاونين متحابّين.

وعلى الرغم من أهمّيّة مقصد الوحدة؛فقد ظلّ غائبًا عن منظومة الأحكام السلطانيّة؛ إذ لا يوجد في حدود المراجع المستقرأة من القدامى أو المعاصرين مَنْ نبّه صراحة إلى مقصد الشريعة في أنْ تتحوّل الدولة أو الأمّة الإسلاميّة إلى قوّة عظمى؛ مثلما فعل المفكّر الطاهر ابن عاشور، حيث عقد فصلًا خاصًّا في

(1) مسيرة الإمام السيد موسى الصدر، إعداد وتوثيق: يعقوب ضاهر، ط1، بيروت، دار بلال، 2000م، ج12، ص28.

كتابه «مقاصد الشريعة» عنونه بـ «مقصد الشريعة من نظام الأمّة أنْ تكون قويّة مرهوبة الجانب مطمئنّة البال»[1]؛ وقد عبّر عن ذلك في موضع آخر بـ «انتظام أمر الأمّة، وجلب الصالح إليها، ودفع الضرّ والفساد عنها»؛ إشارة إلى دور الانفعال المتبادل في ما بين مختلف مكوّنات الأمّة؛ لجلب الصالح العامّ، وإحقاق الشهود الحضاريّ على العالمين.ولذلك، نجد الطاهر بن عاشور يدعو في مقاصده إلى ضرورة رعاية مقصد الشريعة من نظام الأمّة ووحدتها، وفي هذا يقول: «إنّنا بحاجة إلى علماء أهل نظر سديد في فقه الشريعة، وتمكُّن من معرفة مقاصدها، وخبرة بمواضع الحاجة في الأمّة، ومقدرة على إمدادها بالمعالجة الشرعيّة؛ لاستبقاء عظمتها، واسترفاء خروقها، ووضع الهناء بمواضع النقب من أديمها»[2].

ولا يخفى أنّ التنظير لهذه القاعدة في الكتب الفقهيّة للسنّة والشيعة لم يأخذ حقّه، وما زال بحاجة إلى كثير من البحث والتحقيق، ولكنْ كان من المفيد الإشارة إلى أهمّيّة هذه القاعدة، على أنّ أبحاث الفقه المقاصديّ في كتب علماء الإماميّة غير مطروحة بالشكل المطلوب، وهذا له أسباب منهجيّة لا مجال لذكرها في هذه المقالة.

رابعًا: مشروع الوحدة الإسلاميّة:

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[3].

فالتنازع يوجب تبديد القوى المعنويّة؛ مضافًا إلى تبديده وإضاعته للقوى الماديّة، وذهابه بالدولة والحكم. وقد شُبّهت الدولة بالريح في الآية؛ لأنّها تُشبهها بلحاظ هبوبها وسيطرتها على الأشياء ونفوذ أمرها[4].

---

(1) ابن عاشور، الطاهر: مقاصد الشريعة، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، ط2، الأردن، دار النفائس، 1421هـ.ق/ 2001م، ص405.

(2) م.ن، ص407.

(3) سورة الأنفال، الآية 46.

(4) الشيرازيّ، محمد الحسينيّ: تقريب القرآن إلى الأذهان، ط1، بيروت، دار العلوم، 1424هـ.ق/ 2003م، ج2، ص340.

إنّ الوحدة الإسلاميّة أمل الأمّة الإسلاميّة قاطبة، وهي المطمح الذي عمل من أجله روّاد نهضتها وقادة شعوبها والصفوة من علمائها ومفكّريها، وهي مصدر من مصادر القوّة للأمّة الإسلاميّة، والوسيلة الناجعة للتغلّب على عوامل الفرقة والتمزّق وعناصر الضعف والعجز، وهي فوق كلّ خلاف، وتعلو على كلّ نزاع.

ولذا ينبغي علينا تفعيل العمل؛ من أجل الوصول إلى مشروع حقيقيّ في الوحدة الإسلاميّة، والالتفات إلى المخاطر التي تُحيط بهذا الموضوع الحسّاس والبالغ الأهمية، وما هو جدير بالانتباه إليه في هذا السياق أنّ الغرب قد تنبّه إلى بشائر النهضة الإسلاميّة وملامح الحركة الإسلاميّة بالمفهوم العامّ الشامل، وليس بالمفهوم الضيّق المتداول في مرحلتنا الحالية قبل عقود من السنين؛ ولذلك تربّص الغرب بفكرة الوحدة الإسلاميّة، وسعى بكلّالوسائل إلى تشويه مقاصدها، وتحريف مضامينها، وشنّ حملات التشهير ضدّ المتبنّين لها الدّاعين إليها والعاملين من أجلها[1].

(1) ينقل تلميذ الإمام البروجرديّ عنه أنّه كان يرى أنْ لا داعي للانشغال بموضوع الخلافة؛ وإنّما التركيز على الإمامة والمرجعيّة العلميّة لأهل البيت عليهم السلام. يقول تلميذه الشيخ محمد واعظ زاده الخراساني:ما رأيت السيد الأستاذ يطرح مسألة «الخلافة» على الإطلاق في جلساته العامّة والخاصّة، في الدرس وفي خارج الدرس؛ بل سمعته في جلساته الخاصّة يقول: «مسألة الخلافة لا جدوى فيها اليوم لحال المسلمين، ولا داعي لإثارتها وإثارة النزاع حولها. ما الفائدة للمسلمين اليوم أنْ نطرح مسألة مَنْ هو الخليفة الأوّل؟ إنّما المفيد لحال المسلمين اليوم هو أنْ نعرف المصادر التي يجب أنْ نأخذ منها أحكام ديننا. من هنا، كان السيّد يؤكّد على حديث الثقلين: «إنّي تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا أبدًا: كتاب الله وعترتي، وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض»، ولا يكاد يمرّ شهر على دروسه دون أن يذكر في مناسبة هذا الحديث». (الخراساني، محمد واعظ زاده: حياة الإمام البروجردي، ط1، المجمع العلميّ للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة، 1421هـ.ق، ص186).
وممّا ينسجم مع هذا التوجّه الحكيم ما جاء في ختام المقدّمة الإضافيّة القيّمة التي كتبها الشيخ محمود شلتوت لطبعة دار التقريب بين المذاهب الإسلاميّة بالقاهرة لتفسير «مجمع البيان في تفسير القرآن»، حيث يقول: «إنّ المسلمين ليسوا أرباب أديان مختلفة، ولا أناجيل مختلفة، وإنّما هم أرباب دين واحد، وكتاب واحد، وأصول واحدة، فإذا اختلفوا فإنّما هو اختلاف الرأي مع الرأي، والرواية مع الرواية، والمنهج مع المنهج، وكلّهم طلّاب الحقيقة المستمدّة من كتاب الله، وسنّة رسول الله، والحكمة ضالّتهم جميعًا يُنشدونها من أيّ أفق، فأوّل شيء على المسلمين وأوجبه على قادتهم وعلمائهم، أن يتبادلوا الثقافة والمعرفة، وأن يُقلعوا عن سوء الظنّ وعن التنابز بالألقاب، والتهاجر بالطعن والسّباب، وأن يجعلوا الحقّ رائدهم، والإنصاف قائدهم، وأن يأخذوا من كلّ شيء بأحسنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (سورة الزمر، الآيتان 17-18). (الطبرسي، الفضل بن الحسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، تقديم: الشيخ محمود شلتوت، القاهرة، دار التقريب، ج1، المقدّمة، ص17).

إنّ مشروع الوحدة لا بدّ من أن يتحوّل إلى حركة مؤسّساتيّة؛ كما فعل الشيخ الأكبر جعفر كاشف الغطاء، والإمام البروجردي، والإمام شرف الدِّين، وغيرهم من أعلام الأمّة؛ فقد شجّع السيد البروجردي المبادرة الطيّبة التي قام بها الشيخ محمّد تقي القمي؛ بذهابه إلى مصر، والانفتاح على علماء الأزهر، وطرحه تأسيس دار للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة.وكان من نتائج ذلك التواصل والحوار العلميّ صدور فتوى شيخ جامع الأزهر الشيخ محمود شلتوت بجواز التعبُّد بمذهب أهل البيت عليهم السلام؛ وأنّه أحد المذاهب الإسلاميّة.

كما قدّم السيّد البروجردي أكبر دعم مالي لدار التقريب بين المذاهب الإسلاميّة في القاهرة ولنشاط مؤسّسها الشيخ محمد تقي القمّي.وبلغ من حرصه واهتمامه بهذا المشروع الوحدويّ أنّه عندما كان على فراش المرض الذي توفّي بسببه؛ قال لمن حوله: «قولوا للشيخ القمّي أن يوصل رسالتي للشيخ شلتوت، وأن يُصلح ما بين إيران ومصر؛ لأنّي أخشى أن تذهب الجهود لعدّة سنوات سدى»، وفي اللحظات الأخيرة من حياته كان يسأل: «هل ذهب الشيخ القمّي إلى مصر أم لا؟ لماذا تأخّر؟»[1].

ويقول الشيخ محمد مهدي الآصفي واصفًا مشروع الوحدة الإسلاميّة: «الوحدة الإسلاميّة مشروعنا الثقافيّ والسياسيّ والاقتصاديّ الحاضر والمستقبليّ.وهذا المشروع الإسلاميّ العالميّ هو المشروع المؤهَّل لمواجهة التحدّيات الحضاريّة والسياسيّة والاقتصاديّة الكبيرة التي يواجهها العالم الإسلاميّ اليوم.

وهو في الوقت نفسه يحمل في المقابل مشروعًا للتحدّي على مستوى العالم... فهو مشروع مزدوج للتحدّي ومواجهة التحدّي، غير أنّ مشروع التحدّي الإسلاميّ يحمل للبشريّة خيرًا كثيرًا؛ بعكس المشاريع الغربيّة

(1) آل نجف، عبدالكريم: من أعلام الفكر والقيادة المرجعيّة، ط1، بيروت، دار المحجّة البيضاء؛ دار الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، 1419هـ.ق/ 1998م، ص309.

في تحدّي العالم الإسلاميّ الذي يحمل للمسلمين خرابًا وفسادًا حضاريًّا وثقافيًّا، وتبعيّة سياسيّة واقتصاديّة.

وهذا المشروع يحتاج إلى دراسة كثيرة وتخطيط شامل من قِبَل المفكّرين والعلماء والمثقّفين الإسلاميّين، وليس خطابًا إنشائيًّا وشعارًا؛ وإنّما هو مشروع عمل ثقافيّ، وسياسيّ، وفقهيّ، واقتصاديّ، واجتماعيّ، وأخلاقيّ.

وينقل الشيخ الآصفي حديثًا عن رسول الله ﷺ؛ مبيّنًا القيمة العظمى للجماعة والوحدة. قال ﷺ: «**يد الله على الجماعة، والشيطان مع مَنْ خالف الجماعة يركض**»[1].

وفي السياق نفسه يقول أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: «**فَإِنَّ يَدَ اللَّه عَلَى الْجَمَاعَة. وإِيَّاكُمْ والْفُرْقَةَ؛ فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا إِنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ. أَلَا مَنْ دَعَا إِلَى هَذَا الشِّعَارِ[2] فَاقْتُلُوهُ، ولَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ...**»[3].

خامسًا: عناصر الوحدة الإسلاميّة:

إنّ العناصر التي توحِّد دون أن تتعارض مع الأصول الطبيعيّة والاجتماعيّة ومع السنن الإلهيّة الحاكمة في المجتمعات البشريّة هي:

1. وحدة العقيدة:

لا بدّ للأمّة الواحدة من أنْيكون لها أصولٌ اعتقاديّة واحدة، وهذه الأصول لدى الأمّة الإسلاميّة -بإجماع جميع علماء المذاهب- هي: التوحيد، والنبوّة، والمعاد. وإنكار واحد من هذه الأصول، أو عدم الإيمان به، يُخرج الفرد من دائرة الإسلام؛ بإجماع العلماء، وبنصّ القرآن والسنّة. وإذا كان ثمّة

(1) النسائيّ، أحمد: سنن النسائيّ،ط1، بيروت، دار الفكر، 1348هـ.ق/ 1930م، ج7، ذكر أعظم الذنب، ص92-93.

(2) أيّ مفارقة الجماعة والاستبداد بالرأي. وقوله عليه السلام:(ولو كان تحت عمامتي) كناية عن أقصى القرب من عنايته؛ أي ولو كان ذلك الداعي في هذا الحدّ من عنايتي به. وقيل: أراد ولو كان ذلك الداعي أنا. (انظر: المجلسي، بحار الأنوار، م.س، ج33، ص374-375).

(3) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج2، الخطبة127، ص8.

أصول أخرى فهي أصولٌ للمذهب، لا أصول للدِّين؛ كالإمامة لدى الشيعة، والعدل لدى الشيعة والمعتزلة. والاعتقاد بهذه الأصول الثلاثة -إذًا- كافٍ لإيجاد وحدة عقديّة بين أبناء الأمّة الإسلاميّة.

2. وحدة العمل والاتّباع:

تقدّم أنّ كلمة «**الأمّة**» تنطوي على معنى الاتّباع؛ والاتّباع يكون في الأصول والفروع. وقد بيّنّا المقدار الضروريّ من الإيمان بالأصول؛ ممّا يستلزمه الإسلام والوحدة الإسلاميّة. وهنا نذكر -أيضًا- لزوم اتّباع المنهج الإسلاميّ في الفروع؛ بمقدار ما اتّفقت عليه جميع المذاهب الإسلاميّة، وفرضه الكتاب، وأوجبته السنّة؛ بوضوح ودون أيّ إبهام.

ولا يوجد مذهب من المذاهب الإسلاميّة المعروفة يُنكر الصلاة، والصوم، والزكاة، والحجّ، والجهاد. ولو أنكر فرد وجوب واحد من هذه الأعمال صراحة (لا بالملازمة)؛ فإنّه يَخرج من رِبْقة الإسلام.

3. وحدة القيادة:

إنّ كلمة «**أمّة**» تتضمّن معنى القيادة، والاتّباع الذي تحدّثنا عنه يستلزم القيادة. وللقيادة في الإسلام مصداقان؛ أحدهما: صامت وخالد، والآخر: حيٌّ ومتغيّر.

والقيادة الصامتة هي بإجماع المسلمين: كتاب اللّه، وسنّة رسوله، ولا يوجد بين المذاهب الإسلاميّة من يُنكر قيادتهما، وهما دعامتان هامّتان لوحدة المسلمين، والاختلاف فيهما له مجالان:

الأوّل: اختلاف المجتهدين في منطوق الكتاب والسنّة ومفهومهما، وفي شروط حجيّتهما وحدودها،وأمثال ذلك من البحوث المطروحة في المذاهب الكلاميّة والفقهيّة. وهذا الاختلاف لا يتعارض مع أصل اتّفاق المسلمين على حجّيّة الكتاب والسنّة.

الثاني: الاختلاف في الصدور؛ ويرتبط بالسنّة فقط؛ لأنّ صدور جميع الأحاديث المروية غير قطعيّ، ورُبَّ رواية صحّت في نظر عالم، لم تصحّ في رأي عالم آخر. ولا يصدق ذلك على الكتاب؛ لتواتر جميع ألفاظه وآياته. والاختلاف بين السنّة والشيعة في سنّة رسول اللّه ﷺ إنّما هو اختلاف في المقدّمة الصغرى، لا الكبرى -على حدّ تعبير المنطقيّين-، فالفريقان متّفقان على حجّيّة السنّة؛ وأنّها واجبة الاتّباع؛ كالقرآن. والاختلاف في أنّ هذا القول من السنّة أم لا؟

وأمّا القيادة الحيّة المتحرّكة، فتتمثّل أوّل ما تتمثّل في شخص القائد الأوّل رسول اللّه ﷺ؛ الذي مضافًا إلى إمامته الدِّينية، هو قائد المجتمع الإسلاميّ وزعيمه السياسيّ.

4. وحدة الهدف:

إنّ مفهوم الأمّة يتضمّن الحركة نحو هدف واحد. ووحدة الهدف مثل وحدة العقيدة، ووحدة العمل، ووحدة القيادة؛ تُشكِّل أصلًا إسلاميًّا هامًّا، غير أنّها وردت في النصوص الإسلاميّة بلُغة التوجيهات الأخلاقيّة، ولُغة الحثّ على اكتساب المكارم والفضائل، لكنّها لُغة فيها تأكيد على أهمّيّة الهدف، وعلى عدم افتراق الهدف عن المسؤوليّة المشتركة. يقول سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[1]، فامتياز هذه الأمّة وأهمّ خصائصها: مسؤوليّة الدعوة والإيمان باللّه، ولأهمّيّة هذه المسؤوليّة قدّمها على الإيمان باللّه سبحانه.

ويُمكن تلخيص أهداف الإسلام والمسؤوليّات المشتركة التي يحملها المسلمون لبلوغ هذه الأهداف فيما يلي:

(1) سورة آل عمران، الآية 110.

- الفلاح والفوز في الدارين، وكسب رضا اللّه سبحانه؛ فعبارة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] تتكرّر في القرآن بعد كثيرٍ من الأوامر والتعاليم.

- استتباب حاكمية الدِّين في الأرض: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾[2]، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[3].

- استتباب حاكميّة عباد اللّه الصالحين في الأرض: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[4].

- السعي إلى إشاعة الخير والمعروف، وإزالة المنكر والشرّ والفساد. وآيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة تنحو هذا الاتّجاه.

- إنقاذ المستضعفين والمحرومين: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾[5].

- إزالة الفتنة من الأرض: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾.

- تنمية الإحساس بالمسؤوليّة المشتركة الإسلاميّة، والاهتمام بأمر المسلمين، والمواساة بينهم، واتّحادهم مقابل الأعداء: «**من أصبح ولم يهتمّ بأمور المسلمين فليس بمسلم**»، «**المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه**»، «**... وهم يد واحدة على من سواهم**»... وأمثالها من الروايات المشهورة التي تخلق هذه المشاعر الإنسانية.

(1) قد تكرّرت هذه العبارة (11) مرّة في القرآن/ واللافت أنّ عبارة "لعلكم تفلحون" التي وردت في الآيات الكريمة جاء قبلها إمّا مجموعة نواهي تنهى عن أمور تؤدّي إلى تفكيك المجتمعوانهياره من قبيل: الربا، وشرب الخمر، والميسر، وإمّا جاء قبلها مجموعة أوامر وحالات تعبّر عن مظاهر عزّة الأمّة وتماسكها ووحدتها؛ من قبيل: الحجّ، وصلاة الجمعة، والجهاد، والرباط، وهذا قد يؤشّر إلى أنّ هذه الأمور لا تتحقّق من دون الوحدة التي هي أمر أساس في ديمومة الأمّة الإسلاميّة.

(2) سورة البقرة، الآية 193، وتمام الآية: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وهذه الآية منسجمة مع كثير من الروايات السنّيّة، وقريب منها بعض الروايات الشيعيّة التي أمرت بقتل المفارق للجماعة، أو ما نقلناه عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَلَا مَنْ دَعَا إِلَى هَذَا الشِّعَارِفَاقْتُلُوهُ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ**». وهذه الروايات تحدّد المصداق المحقّق للفتنة؛ وهو ضرب الجماعةأو إضعافها. والآيةَ أوجبت قتَال هولاء حتّى لا تكون فتنة؛ وبالتالي يستتبّ الحكم الإلهيّ، ويكون الدِّين لله.

(3) سورة التوبة، الآية 33.

(4) سورة الأنبياء، الآية 105.

(5) سورة النساء،الآية 75.

- إحلال روح الأخوّة الإسلامية بين المسلمين، حتى إنّ الفرد المسلم يتمنّى لغيره ما يتمنّاه لنفسه، وإنّ المؤمنين بمنزلة نفسٍ واحدة.

5. الوحدة في الخصال ومكارم الأخلاق:

من الطبيعي أنّ المجموعة البشريّة المشتركة في عقائدها وأعمالها وأهدافها وقيادتها تشترك -أيضًا- في الخصال والملكات النفسيّة. وكثيرٌ من النصوص تُبيّن هذه الوحدة الأخلاقيّة والاشتراك الروحيّ بين المسلمين، حين تتحدّث هذه النصوص عن صفات المؤمنين؛ مثل: الصدق، والأمانة، والوفاء بالعهد، وعفّة البطن والفرج، وأمثالها. ولا يمكن أن نتوقّع بلوغ المسلمين جميعًا مستوًى واحدًا في هذه الخصال؛ كما إنّهم لا يرتفعون إلى مستوى واحد من العقيدة، ولكنْ ثمّة طابعٍ مشتركين بغي أنْ يسود جميع أفراد المسلمين في هذا الإطار.

6. عنصر الوحدة الثقافيّة:

إنّ الاشتراك في العناصر السابقة المذكورة يستتبع اشتراكًا في ثقافةٍ تُوحِّد بين أبناء العالم الإسلاميّ، فلو نظرنا إلى البلدان الإسلامية لرأينا -على الرغم من اختلاف تقاليدها ولغاتها وعاداتها، والهجوم الثقافيّ الغربيّ على ربوعها- سيادة ثقافة مشتركة بين أبنائها.

وهذه الثقافة المشتركة تُشكِّل أكبر رصيد للتفاهم، والتلاحم، والتعاضد، والإحساس بالأخوّة والانتماء الواحد. ومن هنا، يسعى أعداء الأمّة إلى إزالة هذا المُشترك الهامّ بين المسلمين عن طريق المسخ والغزو. وفي الروايات الإسلامية حثٌّ على عدم تقليد الكفّار في الزيّ ومظاهر المعيشة: «**من تشبّه بقوم فهو منهم**»، من أجل بقاء طابع الثقافة الإسلامية سائدًا بين المسلمين[1].

(1) انظر: الخراساني، "الوحدة الإسلاميّة عناصرها وموانعها"، م.س، ص10-17.

سادسًا: كيفيّة تحقُّق مشروع الوحدة:

يقول الشيخ محمد مهدي الآصفيّ إنّ الوحدة هي عبارة عن «**أصل**»، و«**فقه**»، و«**أخلاق**» و«**آليّات علميّة وعمليّة**»، وما لم تجتمع هذه النقاط جميعًا فإنّ هذا المشروع لن يستطيع أن يُحقّق أهدافه الكبيرة على وجه الأرض. وهي على الشكل التالي:

1. تأصيل الوحدة:

الوحدة، في الإسلام، وفي المجتمع الإسلاميّ، هي»أصل»؛ ومعنى الأصل أنّه أساس ومعيار علميّ وعمليّ للتعامل مع مواضع الاختلاف العلميّ والفكريّ والسياسيّ والاقتصاديّ؛ فكلّما واجهنا في حياتنا العمليّة أو السياسيّة أو الاقتصاديّة موضعًا من مواضع الخلاف... كانت الوحدة أصلاً ومنهجًا في التعامل مع نقاط الخلاف... ولا يعني ذلك إلغاء الخلاف والرأي والاجتهاد المخالف، فذلك أمرٌ غير ممكن وغير صحيح... ولكنْ، لا بدّ من التعامل مع نقاط الخلاف العلميّ والعمليّ والسياسيّ بين المسلمين بمنهجيّة علميّة وعمليّة... والوحدة هي هذه المنهجيّة العلميّة والعمليّة للتعامل مع مواضع الخلاف بين المسلمين.

2. فقه الوحدة:

للوحدة فقه وقانون، وهذا الفقه نابع من ذاك الأصل، وفقه الوحدة هو تنظيم فقهيّ لأمر التعايش الفقهيّ بين المسلمين، والتعايش الفقهيّ من ضرورات الحياة الاجتماعيّة، حيثإنّ المجتمعات الإسلاميّة تجمع بين مذاهب فقهيّة مختلفة في العبادات، والأحوال الشخصيّة والمدنيّة، والقضاء، والعقود، وهي لا تجتمع على فقهٍ واحد، وفي فقه أهل البيت أحكام خاصّة بـ «**التعايش الفقهيّ**»؛ ومن هذه القواعد:

- قاعدة الإلزام والالتزام[1].
- قاعدة الحصانة والحرمة[2].

3. أخلاقيّة الوحدة[3]:

للوحدة أخلاق؛ كما إنّ للتفرقة والخلاف أخلاقًا أخرى. ومن أخلاق الوحدة: «**الألفة**»، «**الرفق**»، «**المداراة**»، «**العفو**»، «**المسامحة**»، «**اتّباع الحقّ**»، و«**التجرّد من العصبيّة**». ومن أخلاق الاختلاف والفرقة: «**الحسد**»، و«**المشاكسة**»، و«**اللجاج**»، و«**العناد**»، و«**الغضب**».

ومن أخلاق الوحدة: «**التجرّد والتحرّر من العصبيّة والالتزام بالحقّ**»، كما إنّ من أخلاق الخلاف والفرقة: «**العصبية**». ومن أخلاق الفرقة: «**البطش**» و«**سوء المعاشرة**». ومن أخلاق الوحدة: «**الألفة والرفق**».

وللوحدة أخلاق خاصّة تُحضِّر الجوّ الأخلاقيّ للتعايش والتفاهم بين المسلمين. وللتعايش بين المسلمين أعراف وأصول أخلاقيّة لا بدّ منها، ولا يتحقّق من دونها. فلا يمكن الانفتاح، والتعاون، والتعامل، والتعايش

(1) وهذه قاعدة أخرى في التعايش الفقهيّ بين المسلمين؛ وخلاصة هذه القاعدة أمران:
- الأوّل: الالتزام الفقهيّ بصحّة العقود والمعاملات التي تتمّ فيما بين أهل المذهب المخالف لمذهب أهل البيت عليهم السلام.
- الثاني: إلزام أتباع المذاهب الأخرى بما يصحّ في مذهبهم في التعامل المشترك بين أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام، وأتباع ذلك المذهب.

(2) إنّ قاعدة حصانة المسلم وحرمته تعمّ جميع المذاهب الفقهيّة في الإسلام. وإليك توضيحًا إجماليًّا موجزًا لهذه القاعدة: يمنح الإسلام، المسلم-من أيّ مذهب ما لم يتنكّر لضرورات الدِّين أصولًا وفروعًا- حصانةً، ولا يحقّ لأحد أنْ ينال منه إلا بحقّ؛ من قبيل: الروايات التي وردت أنّ «**حرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة**»، أو أنّ «**حرمة المسلم أعظم الحرمات**»، أو «**كلّ المسلم على المسلم حرام**»، و«**الإسلام يُحصِّن الدماء**».

(3) في دعاء الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام الاستعاذة بالله -تعالى- من أخلاق الخلاف والفرقة: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَيَجَانِ الْحِرْصِ، وَسَوْرَةِ الْغَضَبِ، وَغَلَبَةِ الْحَسَدِ، وَضَعْفِ الصَّبْرِ، وَقِلَّةِ الْقَنَاعَةِ، وَشَكَاسَةِ الْخُلُقِ، وَإِلْحَاحِ الشَّهْوَةِ، وَمَلَكَةِ الْحَمِيَّةِ وَمُتَابَعَةِ الْهَوَى، وَمُخَالَفَةِ الْهُدَى، وَسِنَةِ الْغَفْلَةِ، وَتَعَاطِي الْكُلْفَةِ، وَإِيثَارِ الْبَاطِلِ عَلَى الْحَقِّ، وَالإِصْرَارِ عَلَى الْمَأْثَمِ، وَاسْتِصْغَارِ الْمَعْصِيَةِ، وَاسْتِكْثَارِ الطَّاعَةِ. وَمُبَاهَاةِ الْمُكْثِرِينَ، وَالإِزْرَاءِ بِالْمُقِلِّينَ، وَسُوءِ الْوِلَايَةِ لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِينَا، وَتَرْكِ الشُّكْرِ لِمَنِ اصْطَنَعَ الْعَارِفَةَ عِنْدَنَا، أَوْ أَنْ نَعْضُدَ ظَالِمًا، أَوْ نَخْذُلَ مَلْهُوفًا، أَوْ نَرُومَ مَا لَيْسَ لَنَا بِحَقٍّ، أَوْ نَقُولَ فِي الْعِلْمِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَنَعُوذُ بِكَ أَنْ نَنْطَوِيَ عَلَى غِشِّ أَحَدٍ، وَأَنْ نُعْجَبَ بِأَعْمَالِنَا، وَنَمُدَّ فِي آمَالِنَا**». (الإمام زين العابدين عليه السلام: الصحيفة السجاديّة، ط1، قم المقدّسة، دفتر نشر الهادي، 1418هـ.ق، مِنْ دُعَائِهِ عليه السلام فِي الِاسْتِعَاذَةِ مِنَ الْمَكَارِهِ وَسَيِّئِ الْأَخْلَاقِ وَمَذَامِّ الْأَفْعَالِ، ص56).

المشترك بين المسلمين من دون هذه الأخلاق، كما لا يمكن أن يُحقِّق المسلمون الغايات والأهداف الكبيرة لهذا الدِّين على وجه الأرض، ولا يُمكنهم مواجهة التحدّيات الكبيرة السياسيّة والثقافيّة والاقتصاديّة؛ ما لم يتمكّنوا من أن يُحقِّقوا هذا الجوّ الذي لا بدّ منه من التعايش، والانفتاح، والتعامل المشترك، والتفاهم، والتعاون.

4. آليّات الوحدة:

الوحدة ليست مجرّد شعار وخطاب؛ وإنّما هي مشروع عمل فقهيّ وسياسيّ واجتماعيّ، وهو مشروع واسع وكبير، يحتاج إلى تظافر العقول والجهود. ولهذا المشروع آليّات علميّة وعمليّة، ولا تتحقّق الوحدة من دون توفير هذه الآليّات العلميّة والعمليّة في أجواء التعايش الإسلاميّ. وبيان ذلك في ما يلي:

أ. الآليّات العلميّة:

- البحث عن المساحات العلميّة المشتركة بين المسلمين في الأصول والفروع والثقافة العامّة ومصادر التشريع، وهي مساحات واسعة في العقائد، والفقه، والتفسير، وعلوم القرآن، وآيات الأحكام، والحديث، والجرح والتعديل، وأصول الفقه، وبسط الكلام فيما اتّفق فيه الفريقان الكبيران من المسلمين الشيعة والسنّة[1].

- تسليط الأضواء العلميّة على مواضع الخلاف بين المذاهب الإسلاميّة، فلا يصحّ تسطيح الخلاف بين المذاهب الإسلاميّة، ولا تعميق الخلاف بينها؛ فكلٌّ منهما خطأ، والصحيح هو تسليط الأضواء العلميّة على مواضع الخلاف بين المسلمين في الأصول والفروع بشكل موضوعيّ وعلميّ وهادئ.

- التلاقي العلميّ بين علماء المسلمين من المذاهب الإسلاميّة المختلفة،

---

(1) من قبيل: الأنشطة العلميّة التي يقوم بها مجمع التقريب بين المذاهب؛ كطباعة كتب؛ من قبيل: «الحديث النبويّ المشترك»، و«القواعد المشتركة»، و«التفسير المقارن»، و«الرواة المشتركون في إسناد الروايات»؛ من طريق الشيعة والسنّة، والفقه المقارن، والأصول المقارن... وغير ذلك.

فقد كان بين فقهاء المسلمين وعلمائهم في السابق تلاقٍ علميّ واسع في مواضع الخلاف الفكريّ والفقهيّ والأصوليّ والعقديّ، حيث كان يحضر فقهاء من أهل السنة عند أئمّة الشيعة وعلمائهم، وبالعكس كان يحضر علماء من الشيعة عند فقهاء وعلماء من أهل السنّة.

ب. الآليّات العمليّة:

- **الطاعة:** فالله -تعالى- الذي دعانا إلى توحيد الأمّة المسلمة بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾، جعل «**الطاعة**» الأداة المفضّلة والأقوى لتحقيق هذه الوحدة، حيث يقول تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، فالانفلات عن الطاعة يؤدّي إلى الخلاف والتنازع بالتأكيد. وعليه، فإنّ الطاعة هي التي تحفظ تماسك الأمّة والموقف والكلمة... وهذه هي المعادلة الأولى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾، والمعادلة الثانية: أنّ التنازع يؤدّي إلى تشتُّت الأمّة والكلمة والموقف، وهو يؤدّي إلى إفشال الموقف والقرار: ﴿تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾.

وقد أمر الله -تعالى- بطاعة رسوله ﷺ وأولياء الأمور عليهم السلام من بعد رسوله ﷺ؛ جيلًا من بعد جيل، من دون أن ينقطع حبل الولاية والطاعة من المجتمع: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ﴾.

- **المطاوعة:** وحيث لا يمكن الوصول إلى حدٍّ مقبول من التفاهم لتسيير أمور المسلمين... لا بدّ من أن يلجأ المؤمنون عندئذ إلى «**المطاوعة**» عند فشل التفاهم إذا كان ضرر المخالفة أبلغ وأقوى على هذه الأمّة من مطاوعة الرأي الآخر، وحتّى مع الإيمان بخطإ الرأي الآخر وبطلانه، وهذه أشقّ مراحل العمل للمحافظة على وحدة صفّ المسلمين، والمحافظة على الكيان السياسيّ الإسلاميّ العامّ.

ويخفى على كثير تفسير التقيّة ووجهها، فيتصوّرون أنّ صاحب التقيّة يُمارس وجهين في خياراته؛ وجهًا يؤمن به، ووجهًا آخر يتظاهر به، وليس

الأمر كذلك؛ بل التقيّة مطاوعة في السلوك السياسيّ، والعباديّ، والعقديّ؛ لإبراز الوجه الواحد للأمّة الإسلاميّة في السلوك العباديّ والسياسيّ (في قاعدة التقية)، وللإعلان عن قبول التعدُّديّة في المذهب الفقهيّ، وتقنين التعايش الفقهيّ في ما بين المذاهب الإسلاميّة (قاعدة الإلزام والالتزام). ويدلّ على ذلك أنّ مشروعية التقيّة لا تقتصر على حالة الخوف والاضطرار... بل تشمل حالات المداراة العباديّة والسياسيّة.

- التعاون على البرّ والتقوى:

وفاقًا والتزامًا بقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾[1].

- التناصر بين المسلمين:

وهو من شروط الولاء، ومن وجب ولاؤه من المسلمين تجب نصرته؛ كلّما احتاج إلى النصرة واستنصر المسلمين. يقول النبي ﷺ: **«مَنْ أَصْبَحَ لَا يَهْتَمُّ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ»**[2].

- ملازمة جماعة المسلمين:

عَنْ الإمام أَبِي عَبْد اللَّه عليه السلام: **«أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ خَطَبَ النَّاسَ فِي مَسْجِد الْخَيْف فَقَالَ: نَضَّرَ اللَّه عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وحَفِظَهَا وبَلَّغَهَا مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، فَرُبَّ حَامِل فِقْه غَيْر فَقِيه، ورُبَّ حَامِل فِقْه إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَه منْه، ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئ مُسْلِم إِخْلَاصُ الْعَمَل للَّه والنَّصيحَةُ لأَئمَّة الْمُسْلمينَ واللُّزُومُ لجَمَاعَتهمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ مُحيطَةٌ منْ وَرَائِهِمْ... الْمُسْلِمُونَ إِخْوَةٌ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ ويَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ»**[3].

(1) سورة المائدة، الآية 2.

(2) الكليني، الكافي، م.س، ج2، كتاب الإيمان والكفر، باب الاهتمام بأمور المسلمين والنصيحة لهم ونفعهم، ح1، ص163.

(3) م.ن، ج1، كتاب الحجّة، باب ما أمر النبي ﷺ بالنصيحة لأئمّة المسلمين واللزوم لجماعتهم...، ح1، ص403.

فلزوم جماعة المسلمين وعدم مفارقتهم في السرّاء والضرّاء يؤدّي إلى توحيد الساحة الإسلاميّة بالضرورة[1].

خاتمة:

بناءً على ما تقدّم في هذه المقالة، يمكن استخلاص جملة من النتائج والتوصيات؛ وفق التالي:

يقوم أساس العلاقة الاجتماعيّة في الإسلام على مبدأين أو ركيزتين؛ هما: المساواة والأخوّة.

ينظر الإسلام إلى الآخر من منطلق الكرامة الإنسانيّة واعتبارها قيمة مطلقة يبني عليها الإسلام رؤيته الثقافيّة والاجتماعيّة، ويجعلها القاعدة الأساس في تشريعاته، فالآخر أيًّا كان، ولأيّ أمّة انتمى يشمله قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾.

من خلال التأصيل للكرامة الإنسانيّة في التشريع الإسلاميّ نستنتج أصالة احترام النفس الإنسانيّة؛ باعتبارها من أبرز مصاديق الكرامة لبني آدم.

المسلمون إخوة يتكافؤون ويتساوون في قيمتهم المعنويّة؛ وفي الوقت نفسه فإنّ أواصر العلاقة والصلة بينهم تكون شبيهة بالأواصر والصلات التي تربط بين الناس؛ عندما يكونون من أب وأُمّ واحدة.

فصّل القرآن في العلاقة العامّة بين الكفّار والأعداء الذين يتّخذون موقفًا سياسيًّا أو عسكريًّا عدوانيًّا ضدّ المسلمين، وبين الكفّار العاديّين الذين لا موقف عدائيّ منهم؛ حيث نهى عن ولاء القسم الأوّل ومودّته، وأجاز البرّ والقسط للقسم الثاني.

ورد التأكيد على أهمّيّة الدعوة إلى الله والحوار بالأسلوب الذي يتّسم

(1) انظر: الآصفي، محمد مهدي: في رحاب القرآن، ط1، قم المقدّسة، دار القرآن الكريم، 1411هـ.ق، ج13، مشروع الوحدة الإسلاميّة ثقافيًّا وسياسيًّا، عناصر الوحدة، ص212-237.

بالعقلانيّة والمحافظة على العلاقة الإنسانيّة الاجتماعيّة العامّة، من خلال الحكمة والموعظة الحسنة مع الكفّار أو الآخرين من غير المسلمين أو الناس عامّة، من دون فرق بين المسلم وغيره.

اتّضح من خلال الأدلّة القرآنيّة والروايات الشريفة "أنّ كيان الإسلام ومجد المسلمين يستدعيان الحفاظ على الاستقلال في الثقافة والسياسة والاقتصاد، والحذر من وقوعهم في حبائل الكفر. ولكنّ ذلك كلّه لا ينافي مداراة الكفّار ودعوتهم إلى الحقّ، بل والبرّ والإحسان إليهم وتأليفهم؛ كيما يرغبوا في الإسلام، بل وإيجاد العلاقات السياسيّة والاقتصاديّة معهم إذا كان صلاحًا للإسلام والمسلمين مع رعاية الاحتياط.

الوحدة والتضامن ضرورة فطريّة وعقليّة وشرعيّة وسياسيّة واجتماعيّة،ومن أبرز مقوّمات المجتمع والحضارة الإنسانيّة.

الأنا والآخر في الخطاب القرآنيّ؛ رجالًا ونساءً، أفرادًا وأناسًا وجماعاتوحدة إنسانيّة تنتمي إلى نفسٍ واحدة يتفرّعون منها، فيكوّنون شعوبًا وأممًا تجمعهم المودّة والرحمة.

إنّ مبدأ الوحدة في الرؤية القرآنيّة ليس مجرّد فكرة نظريّة أو فلسفيّة مثاليّة؛ وإنّما هو متجذّر اجتماعيًّا في وحدة الجنس البشريّ، وروحيًّا في وحدة الدِّين ورسالته؛ من حيث مصدرها وغايتها معًا.

إنّ مقتضى الرؤية الوحدويّة القرآنيّة هي أصالة السلم والسلام في نشر الدعوة الإسلاميّة في جميع أقطار الدنيا، فالنبي ﷺ ما بُعث إلا رحمة للعالمين: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾. وأي تفرقة تُصيب المجتمعات الإنسانيّة، وبالأخصّ المجتمعات الإسلاميّة، هي خروج عن أصالة السلام والرحمة اللذين هما أساس بنية الدعوة الإسلاميّة.

إنّ المنطلق الأساس لفهم معنى الوحدة هو قول الله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ...﴾.

إنّ مفهوم «**الأمّة**» هو الجماعة البشريّة ذات المسلك الواحد والطريقة

الواحدة والهدف الواحد والقيادة الواحدة. إنّها تتضمّن مفهوم الحركة تجاه قبلة واحدة وجهة واحدة. ومثل هذه المجموعة، بهذه الخصائص، لا بدّ من أن تتوفّر فيها مشتركات أخلاقيّة وروحيّة وثقافيّة.

إنّ الوحدة ليست تنظيرًا سياسيًّا أو مجاملة أو عملًا آنيًّا ينطلق من انفعالات محدّدة، بل هي من صميم رؤية الإسلام بجميع تشريعاته ونظمه، وهي جزء أصيل من مشروع الإسلام وحاكميّته في الأرض؛ حيث إنّه دين التوحيد والوحدة.

إنّ التنازع يوجب تبديد القوى المعنويّة،مضافًا إلى تبديده وإضاعته للقوى المادّيّة.

الوحدة الإسلاميّة مشروعنا الثقافيّ والسياسيّ والاقتصاديّ الحاضر والمستقبليّ.وهذا المشروع الإسلاميّ العالميّ هو المشروع المؤهّل لمواجهة التحدّيات الحضاريّة والسياسيّة والاقتصاديّة الكبيرة التي يواجهها العالم الإسلاميّ اليوم.

عناصر الوحدة الإسلاميّة؛قوامها الوحدة على مستوى العقيدة، والعمل والاتّباع، والقيادة، والهدف، والخصال ومكارم الأخلاق، والثقافة.

الوحدة عبارة عن «**أصل**»، و«**فقه**»، و«**أخلاق**» و«**آليّات علميّة وعمليّة**».

الوحدة في الإسلام، وفي المجتمع الإسلاميّ «**أصل**»؛ ومعنى الأصل أنّه أساس ومعيار علميّ وعمليّ للتعامل مع مواضع الاختلاف العلميّ والفكريّ والسياسيّ والاقتصاديّ.

للوحدة فقه وقانون، وهذا الفقه نابع من ذاك الأصل. وفقه الوحدةهو تنظيم فقهيّ لأمر التعايش الفقهيّ بين المسلمين، والتعايش الفقهيّ من ضرورات الحياة الاجتماعيّة.

من أخلاق الوحدة: «**الألفة**»، و «**الرفق**»، و«**المداراة**»، و«**العفو**»، و«**المسامحة**»، و«**اتّباع الحقّ**»، و «**التجرّد من العصبيّة**».

للوحدة آليّات علميّة وآليّات عمليّة ضروريّة لتحقيقها وصيانتها وتمتينها في المجتمع.